

كيف نقرأ العنف ضد النساء الفلسطينيات في إسرائيل؟

نادرة شلهوب-كيوركيان*

يُبيّن تاريخ العنف الممارس ضد النساء في السياق الكولونيالي أنه جرى إقحام إيديولوجيات جندرية مختلفة في المستعمرات (انظروا -على سبيل المثال-: Mama, 1977; Fanon, 1980)، تتضمن تأثيرات داخلية (نحو: الاضطهاد الأبوي؛ الرقابة على جنسانية المرأة وحقوقها الجسدية؛ التطرف والأصولوية؛ نزاعات وصراعات قبلية ومجتمعية وفُئوية) أو خارجية (نحو: الفشل الكوني في الاعتراف بالغين وأو مُتعه؛ الغزو العسكري)، تتعدى من الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، التي تقيم في ما بينها علاقات تبادلية معقدة. لم يقتصر تأثير العنف الممارس ضد النساء في السياق الكولونيالي على الفضاء الخاص، بل تبيّن أنّ الشخصي هو سياسي، وأنّ السياسي-الاقتصادي هو شخصي بامتياز. يُلزمنا تقصي العنف الممارس ضد النساء في ظلّ النظام الكولونيالي الإسرائيلي بمراجعة دقيقة للتاريخ الكولونيالي-الاستعماري وتعبيراته الآتية في فلسطين (في صدد تقصي جينولوجيا الظروف التي تشجّع ممارسة العنف ضد النساء، في الإمكان - على سبيل المثال- مراجعة: Haj-Yahia, 1996, 2000; Shalhoub-Kevorkian, 2004).

وفي حالتنا، ينبغي بحث العنف الممارس ضد النساء بنظرة تاريخية وأنّية تُعتبر نكبة العام 1948 منطلقاً تحليلياً. تتيح لنا هذه النظرة على النكبة الكشف عن طرق معاناة الفلسطينيين ثقافياً ومادياً من السياسة والتراثية الإسرائيليّتين العنصريّتين وسياسة الغبن الجندرية. ومَرَدُ التراثية العنصرية في إسرائيل إلى يهوديتها وصهيونيتها، وإلى البنية السياسيّة الجندرية المنحازة في إطار نظام بنويّي رجولي واستشراقي وكولونيالي وصهيوني (Shalhoub-Kevorkian, 2000). هذا النوع من الغزو الكولونيالي الإثني الإسرائيلي (Yiftachel, 2006) يستغلّ مسائل خلافية في المجتمع والثقافة الفلسطينيين، ويعمل على تعزيز ضررها بالنساء الفلسطينيات وتحويله إلى عنف.

يحاول هذا المقال طرح ادعاءً مفاده أنّه بغية فهم العنف الممارس ضد النساء في المجتمع الفلسطيني في إسرائيل، علينا استخلاص التحليل المعرفيّ أولاً من تجارب وأصوات النساء أنفسهنّ، ولا يمكن إلا بعد ذلك أن نؤسس التحليل على التجربة والسياقات الكولونيالية الخاصة بسياق الفلسطينيات في إسرائيل؛ وذلك كي ندرك على نحو أفضل تأثير الكولونيالية-الاستعمارية الإسرائيليّة على النساء الفلسطينيات المواطنات في دولة إسرائيل، واللاتي تحولن بعد النكبة إلى أقلية في وطنهنّ (Rouhana).

بودي أن أتوقف بداية عند المفاهيم والأفكار التي طرحتها سلوى أمامي. وسلوى هذه هي فلسطينية كانت قد شاركتني (خلال عملي على البحث الأخير "النساء الفلسطينيات والاقتصادي السياسي الإسرائيلي" كما تتعكس من خلال هدم البيوت في النقب") في محتتها، كامرأة غير معترف وغير مرغوب بها تعيش في قرية غير معترف بها؛ إذ تتيح لنا معاناتها الشائكة

فهم ماهية العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تُرغم النساء على الاستسلام للعنف الممارس ضدهن، وماهية الظروف البيئية والسياسات التي تُحصن بُنى الاضطهاد.

"بهاك النهار بعد ما هدوا البيت واللي حواليه بالليل، تحوّلنا كلنا وقعدنا بكونا وحكونا وفكربنا شو نعمل هلق؟ وكيف بدننا نعمل بعد ما هدوا كل شي؟... أنا كنت مصدومة... مصدومة. كنت قاعدة بسمع هناس تحكي، وأنا هون ومش هون. عقلني مش معندي. حاسي إيه ضعفت بهالدنيا.

فجأة سمعت الولد، ابني، ببكي ويصبح يصيح. عرفت زحف بالنار. ما كان فيه نار، بس الجمر كان مولع والتراو والأرض نار، وحرق إيديه الاثنين، وكفوف إيديه وصابيعه... وشوي ذقنو. أخذناه عالمستشفى... بس حروقو صعبة كثير كثير.....

بفك... فكري كيف هدوا المنطقة، والبيوت، وأحنا رحنا نشوف وجوههن بالمستشفى... شعور صعب رهيب رهيب.

بقينا بالمستشفى... والكل يطلع عليّ وعلى جوزي بغضب... بكرابية. تصوّري نادوا الشرطة تتحقق معندي: قال بيسّمه باسرائيل عنف ضد الأطفال... صعب صعب... كان شعور قاسي، ابني يتعدّب، زوجي يلومني أنا والكل يوم الأم، وراح البيت... وحققوا معي تحقيق صعب... أقسى وأصعب يوم بحياتي. وبقينا بالمستشفى أسبوعين؛ وكل مرة يجبن الدكتورة والممرضات، يكشفوا عايني، يكرهوني... يقولوا شو هالمختلفة! بدانية... كنت البدوية الحanca اللي ما عرفت تحمي ولدها من إتو ينحرق... قصة طويلة، طويلة، قصّتي... .

كلنا كنا بحزن، كلنا، وزوجي أصبح إنسان ثانٍ؛ إنسان ما نعرفو.

صار يرفع إيدو عليّ... لأول مرّة... يضربني... وظلّ يضربني، وبعدها ما وقف.

صحيح هدوا بيتي بهذاك اليوم... وحياتي وعيالي ما بقيت عيلاني... كلهم تغيروا... بيوتنا ومنطقتنا كلها هدواها... وأنا ما عدت عارفة شو عاملة ومين أنا أبداً...

حرق ولدي حرقي. حرقي من الداخل... حرق عيلاني وحياتي كلها... بنحرق قلبي كل يوم بطلع عليه...

يشاركنا صوت سلوى بتأثيرات الإيديولوجيا والسياسات والممارسات الإسرائيلية على الحياة اليومية للإنسان الذي يعيش في قريته التي لا تعرف بها الدولة؛ وفي حالتنا هذه فهي المرأة التي فقدت بيتها ووطنهما، أم شابة فقدت قدرتها على حماية بيتهما، وزوجة تعاني من التكيل. لقد أثر واقع حياتها الجديد، الذي تشكّل في أعقاب الخسارة الكبيرة التي حلّت بها، أثر على عالمها، وعلى صورة القوّة التي تشكّل نسويتها وأمومتها ومجدها كامرأة بلا بيت (اجتماعيًّا وماديًّا ونفسياً وعاطفياً) - كل ذلك أثر تأثيراً بالغاً في طريقة معاملة زوجها ومجتمعها لها، أو التعامل الفوقي للسلطات وممثلي جهاز الصحة. ويكشف عدم الاعتراف بها تَعَدُّد دوائر الاضطهاد الذي تعاني منه كفرد، وكأم، وكزوجة وكمواطنة تعاني من العنف، رغم أنها وللولهة تستحق المساعدة، لكن من الناحية الفعلية إنّ مقدّم المساعدة هو ذلك الكولونيالي الذي يضطهدّها.

لكلّ مجال من الاضطهاد منطقهُ الخاصّ، إلا أنّ مكانة سلوى تشكّلُ نموذجًا تلتقي فيه جميع المجالات وتنتشابك: البنية الأبوية، تلك الأداة الداخليّة للمجتمع والبيئة الذين تعيش فيهما، وإيديولوجيا الدولة مع منطقها الكولونيالي في سياقات معينة. تقف سلوى مقابل مجموعة القواعد هذه التي تمنح الاضطهاد شرعية، والتي تساندها قواعد مؤسّساتية مختلفة تحكر طريقة تمثيلها، وتشرح كيفية تحكم الحياة اليوميّة للنظام الأبوي والكولونيالي بجسدها وبحياتها. لقد أَسَّسَ هُنْمُ بينها وظيفتها الجندرية من جديد، ومن خلال ذلك خلق لها عدّة هُويّات سيوليّة: "لا-أمّة" غير معترف بها؛ "مواطنة" غير جديرة؛ أمّ غير صالحة؛ أمّة مُعَنَّفة؛ بدويّة غير مرغوب بها؛ صوت غير مسموع؛ وغيرها. بالرغم من تعدد الخسائر، والاضطهاد الأبوي، والعدوان اليوميّ هذا، ما زالت ذاتاً غير معترف بها، ومجرّد وجودها يشكّل "تهديداً" لدولة إسرائيل. ينبع هذا التهديد من "التخلف" ومن المشهدية غير المرغوب بها؛ هذا بالرغم من عدم رؤيتها كإنسان يعيش في منطقة غير معترف بها، عندما تحتاج إلى المساعدة الطبيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة.

وكما يتضح من أقوال سلوى، تتعامل الدولة الكولونيالية مع الهجوم على البيت الفلسطيني كاستراتيجياً لهم البيوت ونهبها الناس عبر تحويلهم إلى شخصيات بلا بيت وغير معترف بها في وطنها. لقد أنتجت ممارسات الدولة هذه توجّهاتٍ مرتبكة ومتناقضة بالنسبة للنساء. من جهة، تدعى الدولة أنّ سياستها الرسميّة تقوم على مبادئ المساواة والمواطنة وتنتمي إلى جهاز قضائي يحمي النساء والأولاد من جميع أنواع التكبيل. تدعى سياست الدولة المعلنة هذه أنّها تريد تخلص طفل سلوى من تصرفات الأم "المختلفة والمهمّلة"، وإنقاذها هي (كاميرا مُعَنَّفة) من سلوكيات زوجها العنيفة. ومن جهة أخرى، إنّ الدولة تُعرف سلوى كامرأة عديمة الثقافة ومتخلفة تُلْحِقُ الأذى بأولادها، وكجزء من مجتمع فاشل، وإنسانة غير متحضّرة وغير معترف بها.

في الحالة الفلسطينيّة هذه، يبيّن لنا العنف الممارس ضدّ النساء -إلى حدّ بعيد- العلاقات التبادلية بين الكولونيالية والعنف الأبوي. وكما يقول فلانون (1980)، ثمة علاقة وثيقة في غالبية المستعمرات بين احتلال البلاد والعنف الممارس ضدّ النساء. وتكشف لنا حالة سلوى أنّ تعامل الدولة العنيف يساهم في إقصاء النساء عن الدوائر السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، ويعمل على تحصين بُنى ومصالح أصحاب القوّة البطركيّة. من جهة، يقوم النظام الكولونيالي الإسرائيلي بدور "المنقذ" لدى تقديم الخدمات الطبيّة إلى الطفل المصاب بالحرق، وتقديم المساعدة الاجتماعيّة إلى سلوى، وفي الوقت نفسه يواصل التحكّم بحياة النساء وتغيير العلاقات الجندرية بطرق شّتى ومعقدّة ومتناقضّة. فتكبيل النساء بدور التبعيّة الاجتماعيّة والاقتصاديّة يعمل على تحصين العالم الذي يسيطر عليه الرجال، ويزيد من يُسْر الإساءة إلى النساء.

* نادرة شلهوب-كيوركيان مديرة برنامج الدراسات النسوية في مدى الكرمل، ومحاضرة في معهد علم الإجرام وقسم العمل الاجتماعي والرفاه المجتمعي في الجامعة العبرية في القدس

مراجع:

- Fanon, F. (1980). *A dying colonialism*. New York: Grove Press.
- Haj-Yahia, M.M. (1996). "Wife abuse in Arab society in Israel: Challenges for future change". In J.L. Edleson & Z.C. Eisikovits (eds.), *Future interventions with battered women and their families*. Thousand Oaks, CA: Sage Publications. pp. 87-101.
- Haj-Yahia, M. (2000). "Wife Abuse and Battering in the Sociocultural Context of Arab Society". *Family Process*, 39 (2), pp. 149-268.
- Mama, A. (1997). "Heroes and Villains: Conceptualising Colonial and Contemporary Violence Against Women in Africa". in Alexander, M. and Mohanty, C. (eds.), *Feminist Genealogies, Colonial Legacies, Democratic Futures*. New York/London: Routledge.
- Rouhana, N. (1997). *Palestinian citizens in an ethnic Jewish state: Identities in conflict*. New Haven, CT: Yale University Press.
- Shalhoub-Kevorkian, N. (2004). "Militarization and policing: Police reactions to violence against Palestinian women in Israel". *Social Identities*, 10(2), 171-194.
- Shalhoub-Kevorkian, N. (2000). "The efficacy of Israeli law in preventing violence within Palestinian families living in Israel". *International Review of Victimology*, 7, pp. 47-66.
- Yiftachel, O. (2006). *Ethnocracy Land and Identity Politics in Israel/Palestine*. Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press.